الطفل والتكنولوجيا.. إيجابيات وسلبيات

د. طارق البكري *

تضخَّمت في السنوات القليلة الماضية عمليات البناء/ أو/ الهدم الفردي والمجتمعي؛ نظرًا لتداخل وسائط تربوية جمعية كاسحة، استطاعت وبسهولة دخول البيوت، ليس من أبوابها، كما يحدث عادةً لدى المجتمعات الراقية، بل أضحى الدخول من دون منافذ وبلا استئذان ودون محاذير تفرضها القيَم والمعتقدات، فلم تعُد الأبواب، ولا النوافذ، الوسيلتين الوحيدتين للنفاذ للداخل وتجاوز الجدران، بل تجاوزت الوسائط الحديثة كل التوقُّعات، وبات اختراق كل المُعيقات أمرًا بَدْهيًا وفي غاية البساطة والسهولة، حتى تمادت لتكون تلك الوسائط الحديثة بمثابة جائحة، فاقت بقدراتها جائحة كورونا الأخيرة.

ولا يخفَى أن العالم الافتراضي – بكل أنماطه – أضحى اليوم مجالًا خصبًا للورود والبحث والدراسة المتشعبة؛ لدوره المهم في تشكيل شخصية الطفل خاصة، والمساهمة في بنائها/ أو/ هدمها إنسانيا ودِينيًا وفكريًا وإبداعيًا ونفسيًا.. وبِتْنا نجد حاليًا اهتمامًا واسعًا مُطَّردًا في هذا الجانب المهم في حياة الطفل ومستقبله، ونشهد تكاثرًا مُطردًا وبشكلٍ لحظي للتطورات التقنية المختلفة. فلا شك كَمْ أن التكنولوچيا المقدمة للطفل سواء أكانت مُعدَّة له خصيصًا أم أنها معدة للكبار ويستهلكها الصغار بأشكالها المتنوعة، تستحق اهتمامًا علميًا مُعمَّقًا؛ فخيوطها متداخلة متشابكة لا يمكن فصلها ببساطة.. بل يستحيل، وعبارة "الفن للفن" قد لا تصلح لهذا "الفن"؛ لأننا نعلم معنى الطفولة ومُقوِّمات بنائها، وأي خطأ مهما كان بسيطًا، فإنه قد يهدد مصير إنسان أُوْكِلَ أمرُه إلينا، ليس هو بالكبير ليميز ويختار.. وليس هو بالجماد فلا يتأثر..

ومن هنا تتضح أهمية دراسة هذا النوع من الوسائط التقنية وارتباطاتها المتشعبة؛ أولًا:

* كاتب وأكاديمي متخصص في أدب الطفل – مصر.

بكل ما تتطلبه الأصول التربوية والأخلاقية والإنسانية، وثانيًا: بكل ما تتوقعه القيَم المجتمعية المختلفة بكل أُسُسها وبنودها وحياتها..

فالطفلُ لا ينمو اجتماعيًا ونفسيًا وثقافيًا من تلقاء نفسه، وعملية بنائه تسلك سُبلًا متعددة، ترافقه من الولادة إلى أنْ يصبح بمقدوره الاعتماد على قدراته وتطويرها بمعرفته؛ لذا من الضروري أنْ نوفِّر له الوسط المناسب الذي ينمو فيه؛ فالنموُّ الإنساني لا ينشأ من فراغ وبشكلٍ تلقائي من ذاته، فلا بد من وسائط تربوية داخلية وخارجية.

ويرى الباحثون أن الطفل لا يَنمو ويَنضجُ عقليًا ونَفسيًا ومَهاريًا بشكل سَليم صَحيح؛ إلَّا إذا كان هناك أناس يعلمونه ويُكسبونه – بطريق مباشر أو غير مباشر – كيف يكون إنسانًا يتحمل مسئوليته ويعرف اختيار الأصح، وبذلك فالطفل/ الإنسان نتاج مجموعة من المُدخَلات البيئية والبيولوچية والجغرافية والأُسَرية والتربوية والإعلامية، وهذه كلها تحدد صورته في حياته المقبلة.

وترك الطفل لينشأ بعفوية وَعشوائية؛ أمرٌ ينطوي على أضرارٍ كثيرة، فالطباع إنْ لم تهذَّب وتُعزَّز لا بد وأنْ تظهر على الملأ لاحِقًا بصورة قد تكون غير محببة؛ لذا كان ضروريًا التركيز عميقًا على مرحلة الطفولة عامة والمبكرة خاصة، لأنَّ ما يلقاه الطفل من خبرات؛ يترك بصماته وآثاره على حياته في مراحل لاحقة، فحياة الإنسان سلسلة متصلة الحلقات، يتأثر فيها الحاضر بالسابق، ويؤثر الحاضر في المستقبل.

ولا شكَّ أنَّ خبرات الطفولة تنعكس على شخصية الطفل في شتى مراحل حياته، من خلال احتكاكه اليومي والدائم بين العناصر والمُدخلات المجتمعية المختلفة، ومن أبرزها ما تفرزه الوسائط السمعية، والسمعية البصرية؛ المرئية والمحسوسة، أو ما يراه البعض بأنه "بلاغة إلكترونية".

وبالنظر إلى ما تتميز به هذه الوسائط من انتشار سريع، فضلًا عن قدراتها التأثيرية الفائقة؛ فقد دخلت في إطار الوسائل والوسائط التعليمية التي تساعد في تعزيز المناهج الدراسيَّة، فضلًا عن وظائفها في التثقيف المجتمعي وفي شتى المجالات، وبذلك صار لها كما يرى الباحثون ارتباط ومساس مباشر بجوانب كثيرة من حياة الإنسان في العصر الحاضر، وأخذت تُسهم في تربية الطفل وتثقيفه وإكسابه المهارات اللغوية. فالطفل ليس بنسيجٍ مفردٍ يقوم بذاته بمعزل عن المجتمع، بل هو في احتكاك دائم ومتواصل مع التفاعلات على أضيق نطاق داخل الأسرة، وعلى أوسع ما يمكن من خلال مؤسسات المجتمع المختلفة.. ومنها اليوم بشكل خاص العوالم الافتراضية التي باتت تشكلها التكنولوچيا الحديثة.

والطفل وبسبب قلَّة خبرته يبقى شديد التأثر بكل ما يحيط به؛ وبخاصة في السنوات الأولى من عمره؛ لأنَّه لا يملك أنْ يميِّز بين كلِّ ما يُعرضُ عليه، وقد لا يرفض كثيرًا مما يُقدم له أو يصادفه، وهو وإنْ رفض؛ فإنَّ رفضه يكون مزاجيًا، لأنَّ شَخصيتهَ ومبادِئَه وقيمَه أمورٌ لا تزالُ في طور التشكُّل والتَّمَظهُر؛ ما يســهِّل اختراق عالَمِه واقتحامه دون عناء، وربما بوسائط بسيطة مُيسَّرة، ومن هنا تقع مَسئولية تشكيل الطفل وبنائه على وليِّ أمره المباشر أولًا، ثم مدرسته لاحقا؛ وكذلك وسائل البناء المختلفة في المجتمع.

وأعتقد أن التكنولوچيا المعاصرة من الوسائط المهمة في التربية اليوم، ومن أساليب التنشئة، لكنها لا تخلو من المخاطر، بل هنالك الكثير من التحديات التي تحاصر الطفل من كل جانب، فمن الطفولة تكون البداية، والأمم التي ترقَى بمفاهيمها ترقى بطفولتها.. واليوم تغيرت كثير من المفاهيم، وأصبحت الوسيلة أهم من الغاية، والأشياء باتت قيمتها ببريقها لا بمضامينها، وليس عندنا مُنتَج فكري مميز يمكن اعتماده للطفل العربي في كل مكان، حتى الأفكار نستوردها من الخارج..

لذا علينا أن نعود للأطفال أنفسهم.. جربنا كل شيء.. جربنا مناهج كثيرة، لكننا لم نفكر بأن نعيد صياغة البُنَى التعليمية من أساسها.. فالطفل العربي اليوم في حالة مواجهة.

نحن اليوم بحاجة لكي نقترب أكثر وبصورة واقعية حيث خيال الطفل وإدراك ما يقدمه له العقل من خلال الإبداع، ولا سيَّما من خلال القصص الهادفة، واقتحام عالم التكنولوچيا بكل قوة، والعمل من أجل تنشيط عملية القراءة والفهم والاستيعاب لدى الأطفال، فهي عمليات معقدة ثقيلة وليس سهلة كما يتوهم البعض؛ خاصةً أن الفئة المستهدفة تعيش اليوم ظروفًا مختلفة تمامًا عن عقدٍ مضى من الزمان، فكل يوم هناك جديد، والعمل القرائي الموجه للأطفال اليوم يحتاج من الأديب أن يسبر العقول الجديدة المختلفة كليةً عن أي مرحلة سابقة، والحاجة اليوم مُلحَّة أكثر من السابق لكي نغذي عقول الأطفال بالقراءة الورقية، فضلًا عن القراءة الإلكترونية والسمعية والبصرية...

ومُحفِّزات الطفل أضحت كثيرة، لكن يبقى الكتاب خارج المنافسة مهما تراجع دوره؛ لأن الطفل القارئ أعمق من الطفل غير القارئ، ومن هنا نفكر بأننا نتوجه للطفل القارئ أولًا، وهو ليس بشخصية سهلة؛ لأنه لم يتأثر إلى حد هجر الكتاب تمامًا، كما أن التحدي يتطلب العمل لتوفير ما يتلاءم من العقول الجديدة، من حيث المضمون وكذلك من حيث الشكل، والأديب يحاول،

لكنه يحتاج طبعًا إلى جهد مقابل من وَليّ الأمر والمدرسة والمؤسسات والمجتمع؛ لكي يتمكن من تحقيق التحفيز المأمول والغايات المرجوَّة.

والمشكلة أننا لا زلنا حتى اليوم نقوم بتقسيم الطفولة بطريق تقليدية قديمة، ونحدد السنوات للطفولة المبكرة والمتوسطة والمتأخرة، وكأنها مُسلَّمات ثابتة، وكنا فيما مضى نقرأ من بعض الأبحاث أن الطفل قبل أن يدخل المدرسة يتعرض لنحو 5 آلاف ساعة تلفزيونية، ثم جاء الكمبيوتر، ثم الإنترنت، وبهرنا بعالم الاتصالات والأجهزة الذكية.. أشياء كثيرة غيرت أسلوب الحياة عند الكثيرين، فلم يعُد التقسيم القديم مناسبًا مع هذه الطفرة الكبيرة في التكنولوچيا، وبات الأطفال اليوم لديهم قنوات خاصة على اليوتيوب وسناب شات وتويتر وتيك توك وغيرها من الوسائط، ولا ندري ماذا يحدث الآن من تطور في هذه اللحظات؛ لذا فإننا نحتاج إلى إعادة التفكير في هذا التقسيم، كما أن علينا أن نعيد التفكير في المناهج التعليمية التي تُقدم للأطفال واليافعين من الروضة حتى الثانوية، ثم الشباب في الجامعة.

في الماضي كنا نتحدث عن محاولات التغريب.. الآن تخطينا هذه المرحلة بمراحل متقدمة، وكما قلتم فإنها فوضى.. بل فوضى مطلقة، وأصبحنا في حالة تهميش للعقول العربية، ولا نغترّ بما يُقال هنا أو هناك ونقرؤه من مدائح في صحفنا العربية.. فالخطر داهم، والتهميش يجري على قدم وساق.. أما كيف أفسر.. فالأمر أقسى وأقصى من أي تفسير.. إلا أننا رغم ذلك لا نخضع، بل نؤمن بأن أدب الطفل قادر على القيام بدوره، ومحاولة التوجيه والتسديد، بالرغم من الضعف العام وعدم الإقبال على القراءة، فإن ذلك لن يثني المخلصين، بل هو دافع للتحدِّي والثبات.

وإن صحَّ القول فإن الطفل العربي في حالة قلق، هذا القلق تحسبه الأسر الواعية والمجتمعات اليقظة مما تقذفه عوالم التواصل الاجتماعي، وأيضًا الألعاب الإلكترونية التي تظهر بكثافة بين حينٍ وآخر، فكيف لنا أن نُجنِّب أطفالنا من أن تتقاطع أفكارهم مع هذا الكَمِّ الهائل من "الغَثّ" والذي بلا شك لا يخدم عقل الطفل وهو في إطار التكوين؟ لذا علينا التمسك بالعمل المؤسسي، وصب الاهتمام بهذا الجانب، لا يمكن أن نبقى مترقبين لما سيحدث دون أن نملك القدرة على صنع القرار، دائمًا نحن إما مُتلقُّون أو مُتلقِّفون، وقد نكتفي بالمراقبة والتفرُّج وانتظار حدوث التغيير، لا بد من أن نبدأ نحن بالتغيير، فلا شيء يتحقق دون إرادة حقيقية، وعلى مختلف المستويات، بدءًا من الحكومات وانتهاءً بالأفراد.

فالطفولة يجب أن تكون همًا، وليست مهنةً أو عملًا.. الهَمُّ هو الذي يحرك الاهتمامات،

وعملية الإنقاذ لا تقوم على فرد واحد، هناك تقصير من الجهات الكبرى في العالم العربي، ولا ألوم المؤسسات الرسمية، فهم ليسوا قادرين على الاتفاق في كثيرٍ من الأمور، والطفولة عند كثيرٍ منهم ليست من الأولويات، علينا أن نؤمن بأن الطفولة هي وحدها التي تستطيع أن تنهض بالعالم العربي من الكبوات التي يعيشها، فقد جربنا الكثير من الوسائط والوسائل والأفكار.. ولا زلنا نتجاهل عالم الطفولة، نتعامل معها كأنها نوع من الفُلْكلُور، أو كأننا مرغمون على التعامل معه، وحتى المؤسسة الكبرى المعنية بالطفولة، وأعني وزارات التربية في العالم العربي نجدها مقصرة، لا نجد أن "هَمّ الطفولة" هو الذي يحركها.. لا يوجد في العالم العربي وزير للطفولة، ومعظم مجالس الطفولة عبارة عن ديكورات.. ومكاتب إعلامية للتصوير والإعلام.. أين النتائج.. معظمها سطحي.. ولا زالت مؤسساتنا التعليمية هي الأضعف، أما خِّريجونا فهم الأقل مستوى.. ومن هنا تبرز مسئولية الكاتب، لكننا لا نستطيع تحميل الكاتب كل المسئولية.. فهو مجرد كاتب، لا يملك القدرة على التحكم بالتغيير، هو يهتم بجزء، وإن كان هذا الجزء شديد الأهمية، فإنه لن تُؤتَى ثماره دون دعم ومشاركة المؤسسات المعنية.. ولذا؛ من الضروري دعم المؤلفين المبدعين من الشباب وتمكينهم وتدريبهم وتوفير كل وسائل الإبداع لهم لكي يتمكنوا من إحداث التغيير المطلوب.. وهذا صعب.. وليس من أوَّليات أحد.. وعسى أن أكون مخطئًا.. وأرجو ذلك.

وفي النهاية أقول، إنه رغم كل الأخطار التي تولِّدها التكنولوچيا الحديثة فإنه من المستحيل الاستغناء عنها، ولكن من الممكن تقنينُها ومراقبتُها والاستفادة منها بكل طريقة يمكن أن تُحدث فائدة للأطفال.. نحن والتكنولوچيا في عالم واحد، والمستقبل للأطفال كما هو للتكنولوچيا.